مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران02/ المجلد 13 ع 01، 16 /01 / 2024
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

نحو إعادة قراءة التراث الإسلامي وتأويله عبر كتابات نصر حامد أبوزيد

Towards a Re-reading and an interpretation of the Islamic heritage through the writings of Nasr Hamid Abu Zayd

رشيد حاجي ، Rachid Hadji rachid132014@gmail.com	فلسفة	قسم الفلسفة. كلية العلوم الاجتماعية. جامعة وهران2 / الجزائر

DOI: 10.46315/1714-013-001-012

الإرسال: 2023/07/08 القبول: 2023/10/23 النشر: 2024/01/16

**

Abstract:

In this article, we deal with heritage, mainly the religious one. It is one of the issues that have absorbed contemporary Arab thought. Subsequently, that has led to an urge to re-read it through Nasr Hamid Abu Zayd, one of the Arab contemporary thinkers. He focused on this heritage through various opinions and ideas, criticizing several tendentious readings as well as the ideology that lacks epistemological sense. He advocated the rebuilding of a scientific and a new, objective understanding of this heritage; and also criticizing its accountability, far from all forms of embellishments and exclusion. It is therefore a scientific reading of this heritage based on a true and realistic objectivity that aims at casting light and exposing what is hidden in Islamic thought. The purpose is to achieve an Arab renaissance that keeps pace with the development of civilization.

Keywords : Text; Heritage; Religion; Interpretation; Nasr Hamid Abu Zaid.

ملخص:

نتناول في هذا المقال إحدى المسائل التي شغلت الفكر العربي المعاصر وهي مسألة التراث خصوصا الديني منه والدعوة الملحة إلى إعادة قراءته من خلال واحد من المفكرين الحداثيين العرب وهو نصر حامد أبوزيد والذي انصبت مختلف آرائه وافكاره حول هذا التراث ناقدا لمختلف القراءات المغرضة والأيديولوجية الفاقدة للحس الابستيمولوجي، داعيا إلى إعادة بناء وعي علمي وفهم موضوعي جديد بهذا التراث ومساءلته مساءلة نقدية بعيدة كل البعد عن كل اشكال التلوين والاقصاء وهي قراءة علمية لهذا التراث مبنية على موضوعية حقيقية وهادفة إلى تعرية المسكوت عنه في الفكر الإسلامي وذلك لأجل تحقيق نهضة عربية مواكبة للتطور الذي عرفته الحضارة.

الكلمات المفتاحية: النص؛ التراث؛ الدين؛ التأويل؛ نصر حامد أبوزيد.

**

مقدمة :

شهد العالم الإسلامي في الفترة المعاصرة، عديد الأزمات والنكبات التي مست مختلف الجوانب والميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، مما أدى إلى ظهور الكثير من التيارات والمشاريع التي حاولت إيجاد الحلول لهذه الأزمات، بعضها دعا إلى الاقتداء بالفكر الغربي والحداثة الغربية والتماس الحلول من هذه الحداثة، والبعض الآخر دعا إلى التشبث بالتراث والمحافظة على الهوية والأصالة الإسلامية، أما الطرف الثالث فدعا إلى محاولة التوفيق بين التراث بمختلف عناصره، والحداثة الغربية بمختلف إنجازاتها ونتيجة هذا انقسمت الساحة الفكرية الإسلامية إلى عديد التيارات المتنازعة كل منها يدعي الأحقية والصواب . ويعتبر نفسه المشروع الأفضل والأنجع في إخراج هذه الأمة من مأزقها وتخلفها الحضاري. وتعد مسألة التراث خصوصا الديني منه إحدى أهم الإشكاليات التي شغلت عقول مفكري الإسلام؛ سواء في المشرق أو المغرب الإسلامي ومن بين ابرز المفكرين الذين اشتغلوا على هذه الإشكالية المفكر المصري نصر حامد أبو زيد الذي دعا في مختلف كتاباته إلى ضرورة إعادة قراءة التراث العربي الإسلامي من منظور حداثي؛ مستعينا في هذه القراءة بأدوات ومناهج أبرزها اللسانيات والسيميولوجيا وتحليل الخطاب، والتأويل...؛ وهذا بعنوان إعادة فهم التراث توازيا مع ظروف العصر المستجدة والموصولة بالسياقات الاجتماعية والثقافية والوصول عندئذ إلى المغزى المعاصر للنص التراثي . وهنا نتساءل :ما هي المبررات والأسباب التي جعلت نصر حامد أبوزيد يدعو في عديد كتاباته إلى ضرورة إعادة قراءة النصوص التراثية الإسلامية خصوصا الدينية منها؟ وما المنهج الذي اتبعه في إعادة قراءته لهذا التراث ؟

التحليل : عند التحديد الدقيق لدلالة مفهوم التأويل ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار ذلك الاتساع الدلالي وتعدد المجالات والتوظيفات التي مست التأويل في حد ذاته، فانتقل من مجال قراءة النصوص الدينية وتفسيرها إلى مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومنها الى مجال "نظرية المعرفة" في الفلسفة، ومنها إلى النقد الأدبي و"السيميوطيقا". (أبو زيد، ن، 1995، 115.) هذا التطور والتغير بين مفاهيم التأويل والفهم والقصد والتفسير. . . أدى إلى نوع من الكثافة والتراكم بل حتى إلى نوع من الغموض مس مفهوم التأويل اذ ثمة تعريفات مختلفة للهيرمينوطيقا كما تطورت في الأزمنة الحديثة. منذ البداية كانت الكلمة تشير إلى علم التأويل خاصة مبادئ التفسير النصي القويم. . " (عادل، م، 2007، 66). ونظرا لهذه الكثافة والضبابية المحيطة بمفهوم التأويل يدعو نصر حامد ابو زيد إلى ضرورة العودة إلى التداول الأصلي لهذا المفهوم؛ أي التأويل الذي يعني قراءة النصوص الدينية وتفسيرها في تراثنا العربي خاصة، مع ضرورة إضافة بعض التعديلات لمسايرة التطور المعرفي والتقدم على مستوى افاق الوعي، الذي عرفه الإنسان في مختلف المجالات العلمية والمعرفية والفلسفية.

إن حديث نصر حامد ابو زيد عن القراءة المغرضة للتراث جعله يعود إلى قراءة اليسار الإسلامي؛ لهذا التراث وبالأخص الديني ليعتبرها قراءة ملونة ومغرضة خادمة لأغراض شخصية، فهي قراءة محايثة؛ لهذا النص لا تسمح تماما بالاختلاف مع النص الأصلي فهي خطابات ترفض التجديد ولا تنتج أي جديد . هي قراءة إيديولوجية موازية للتراث تفتقد للحس الإبستيمولوجي فهي في نظر "نصر حامد أبو زيد" تعدٍّ على الحقيقة وتضحية بالإبستيمولوجي لحساب الإيديولوجي (أبو زيد، ن، 1995، 143).

إن سيطرة الإيديولوجيا في عديد الخطابات السياسية التي عرفها التاريخ الإسلامي في توظيف سلطة الدين من أجل خدمة الأغراض السياسية؛ قد امتد تأثيرها إلى تأويل النص الديني؛ مما أنتج فهما سياسيا لهذا النص مستبعدا بذلك الآليات العلمية والمعرفية الضرورية لكل عملية فهم، وتأويل سليم. "إن الشق الأشعري في خطاب الغزالي المتكلم، والفقيه هو الشق الذي يساند السلطة السياسية، ويبرر هيمنتها الديكتاتورية إيديولوجيا". (أبو زيد ن، 2005، 120). وهذا ما يبين احتماء السلطة السياسية برجال الدين والمفكرين؛ لأجل خدمة مصالحها، ونفوذها وتبرير خطاباتها وتوجهاتها السياسية بالخطابات الفكرية، لتعطي لنفسها المشروعية والشرعية.

إن قراءة النصوص التراثية، والتعامل معها لا يجب أن يتم بطريقة عشوائية إنما من خلال زاويتين لا يمكن الاستغناء عنهما؛ وذلك لتحقيق غاية هي التمييز، والتفريق بين الدلالة الأصلية التاريخية للنص التراثي من جهة والتمييز كذلك بين المغزى الذي ينتج عن هذه الدلالة من جهة أخرى. يقول نصر حامد أبو زيد:" إن التعامل مع النصوص التراثية؛ لا بد أن تنطلق من زاويتين لا تغني إحداهما عن الأخرى خاصة إذا كنا نتحدث عن النصوص التراثية. الزاوية الأولى زاوية التاريخ بالمعنى السوسيولوجي لوضع النصوص في سياقها من أجل اكتشاف دلالتها الأصلية، ويدخل في ذلك السياق التاريخي، بالطبع السياق اللغوي الخاص بتلك النصوص والزاوية، الثانية زاوية السياق الاجتماعي والثقافي الراهن الذي يمثل دافع التوجه إلى تأويل النصوص. وذلك من أجل التفرقة بين الدلالة الأصلية التاريخية، وبين المغزى الذي يمكن استنباطه من تلك الدلالة. (أبوزيد، ن، 1995، 143).

ولهذا كان تحصين منهجية التأويل، وحمايتها من أي تدخل إيديولوجي من خلال تحديد الزوايا التي يجب أن ينطلق منها هذا التأويل مع تحديد الهدف الذي يجب أن تحققه كل زاوية من هذه الزوايا، وهذا بغية ترسيخ فكرة أن النص أو التراث لا يمتلك حقيقة مطلقة واحدة ثابتة كما تعتقد بعض الخطابات الدينية، بل إنّ هذه النصوص على تعددها واختلافها تحمل الكثير من الحقائق والتي تنتج تأويلات متعددة والتأويل السليم، والحقيقي وحده القادر على كشف: "معانيه، ولا يتأتى التفريق بين الدلالة الأصلية التاريخية، وبين المغزى المستنبط من تلك الدلالة

إلا بواسطة إدراك هذا المحتمل والممكن من المعاني المتعددة"(مفتاح، م، 1999، 28). الكامنة التي تعيش في النص بين كلماته، وروح السياق التاريخي، والاجتماعي، والثقافي للنص، ويمكن لهذا الاحتكام إلى هذه الدلالتين ومراعاة الزاويتين أن يوصلنا إلى القراءة المنتجة التي تختلف، ولا تلتقي تماما مع القراءة المحايثة التي لا تنتج إلا صورة طبق الأصل مع تلوينها بطلاء الإيديولوجيات.

إن القراءة المنتجة للتراث تبنى على وعي حقيقي، وعلمي، وتهدف إلى تعرية اللامفكر فيه مع العلم أن التفريق بين دلالة النص، ومغزاه لا يعني الانفصال التام بينهما فالتفريق بينهما ضرورة منهجية، وذلك لإعطاء نوع من الفعالية للتأويل، وتحقيق صورة جديدة لنصوص جديدة انبثقت بعد تفجير البنيات المخفية التي ينطوي عليها النص، أو تنطوي عليها الدلالة الأصلية. "ذلك أن المغزى لا ينفك عن ملامسة الدلالة بالدرجة نفسها التي يوجه بها المغزى أبعاد الدلالة". (أبو زيد، ن، 1995، 122). ومن دواعي هذه القراءة محاولة بلوغ المغزى الذي يتجلى، وينكشف بانكشاف الدلالة التي تؤدي دورا كبيرا وحاسما في الكشف عن أبعاد القراءة، والتأويل إذ أن النصوص التراثية ليست منغلقة على نفسها، ولا تحمل معنى واحدا، وثابتا بل لديها الكثير من المحاميل، والمعاني والدلالات المختلفة "فالنص الأصيل هو نقدي من حيث بنيته ومتعددا يتحمل أكثر من قراءة" (مجموعة من الأساتذة الباحثين، 2015، 116). وعلى هذا فالنص يمكن أن يحمل الكثير من التأويلات، والعديد من القراءات.

إن قراءة التراث وتأويله وفق هذا التصور يسمح للقارئ بتوليد الدلالات، والمعاني الجديدة، أو ما يسمى بالتدفق الدلالي المستمر مما يسمح بفعل تأويلي ناضج، وجديد، وهذا على عكس الخطاب النهضوي الديني الذي غيب هذا البعد في مختلف قراءاته للتراث . فالتلوين أو القراءة المغرضة للنصوص التراثية أُبعد فيها الوعي السليم بأولويات، وشروط القراءة مما حولها إلى مجرد عبث بهذا التراث. " عندما يغيب وعي الباحث في فعل التأويل يتم الوثب من التأويل إلى التلوين، وهذا التلوين هو شكل من أشكال القراءات الإيديولوجية المغرضة والتعسفية للتراث". (أبو زيد، ن 1995، 143). لهذا عدد نصر حامد أبو زيد أسباب انغلاق الفكر الإسلامي، ومظاهره مؤكدا أن كثيرا من التيارات الدينية رغم اختلاف ألوانها مارست تلاعبا بالنص القرآني وبالنصوص المقدسة وهذا خدمة، وولاءً منها للسلطة السياسية القائمة للمحافظة على مصالحها المشتركة، وحدث نوع من التحالف بين السياسي والفقيه للإبقاء على هذه المصالح وتثبيتها وهذا سيتحول إلى عائق يحول دون إقامة قراءة بناءة، ومتجددة للتراث، ويبقى حبيسا، ومقلدا رافضا متجاهلا للواقع المعيش: "إن المقلد يرفض الانخراط في التاريخ، ويتجاهل قضايا الواقع المعيش بالانغلاق على الآفاق التي حددها القدامى". (مجموعة من الباحثين، 2016، 106). هذا الانغلاق يتحول إلى مجرد قراءة تعسفية، ومغرضة للتراث. "وهذه القراءة تؤسس لجمود، وتحجر أو لركود المجتمع وانحطاطه،

وقد تؤول إلى خراب المعنى وانهياره"(حرب، ع 2005، 204). لأنها تكتفي بالشرح، وبالمعلومات الجاهزة والثابتة.

يعد مشروع النهضة الذي رددته الكثير من الخطابات مشروعا غير ملامس للواقع المتغير، كما أنه أهدر في قراءاته الكثير من الأمور المتعلقة بالتراث، ومن أبرز إخفاقاته أنه حاول إخضاع هذا التراث لتأويلات لا أساس لها من الواقعية بل وغير واضحة. يقول أبو زيد: "لكن خطاب النهضة كان يمارس فعاليته غالبا في إطار التراث الديني دون أن يقترب من مجال النصوص الدينية الأصيلة"(أبو زيد، ن 2017، 25- 26). أدت الحداثة بما أنتجته من تغيرات ثقافية إلى ظهور العديد من الدراسات، والأبحاث، وخاصة في العالم الإسلامي سعت إلى محاولة فهم أسباب التراجع، والتأخر ومن أبرز ما طرحته هذه الدراسات مشكلة الحداثة بين الأصالة والمعاصرة، هذه المشكلة التي طرحت من زوايا متعددة، ومختلفة إما باسم التمسك بالتراث، وإما باسم تجاوزه، وإما باسم إعادة خلخلته، ومراجعته، وفي إطار هذا التنوع في هذه المواقف الفكرية والفلسفية اثار نصر حامد أبو زيد سؤال التراث وفق الأطروحة التالية: لماذا حين يذكر التراث يتبادر إلى الذهن "الدين" أو الفكر الديني بصفة عامة والإسلامي بصفة خاصة؟ (أبوزيد، ن، 2014، 13).

إذا كان التراث يمثل بالنسبة لأي أمة من الأمم تاريخها المقدس الذي يمثل هويتها وشخصيتها الجماعية، فإن للأمة الإسلامية تراثها الذي تقدسه، وتمنع في العديد من الأحيان الاقتراب منه، وخاصة إذا كان تراثا دينيا يقول نصر حامد أبو زيد: "لقد تحول التراث الذي تم اختزاله في الإسلام إلى هوية، يمثل التخلي عنها وقوعا في العدمية وتعرضا للضياع، صار معبرا عن عراقتنا، وأصالتنا في تاريخ الوجود الإنساني في حين أصبح التقدم مرتهنا باستيعاب ما أنجزه العقل البشري في مجالات المعرفة العلمية الأمر الذي يعني التعلم من الآخر الذي تعرفنا عليه أول ما تعرفنا معتديا غازيا محتلا لأراضينا مستغلا لأوطاننا" (أبوزيد، ن، 2014، 13). ويتضح من خلال هذا الكلام مدى تبجيلنا للتراث وتقديسنا له بالمقابل عدم استثمارنا الصحيح، والسليم لتراث الآخر. لهذا يتجلى التراث في أسمى صورة كحلقة من حلقات البحث التي يعقدها أبو زيد على إعادة فهم التراث كشك وجودي مؤثر في سائر التشكيلات الخطابية التي أفرزتها الساحة الثقافية العربية. (اليامين، ب، 2011، 103).

إن مشكلة التراث تكمن في أننا حولنا هذا التراث خاصة أقوال السلف، واجتهاداتهم إلى نصوص لا تقبل النقاش أو إعادة النظر، والاجتهاد وحدث نوع من التوحيد بين "الفكر والدين" . إن هذا التمجيد للتراث قد منع التقدم، بل وأدى إلى تخوين، وحتى تكفير كل من يفكر، ويشتغل على إعادة قراءة، وفهم هذا التراث رغم أن هذا التراث هو الوسيلة والتجديد هو الغاية، وهو المساهمة في تطوير الواقع، وحل مشكلاته، والتراث ليس قيمة في ذاته إلا بقدر ما يعطي من نظرية علمية في

تفسير الواقع والعمل على تطويره. (أبوزيد، ن، 1995، 39). وعلى هذا فمشكلة العالم الإسلامي تكمن في تلك الفوبيا التي يعاني منها مفكروه من جهة عند طرحهم لسؤال التراث، ومن جهة ثانية في التفتح على الآخر وما حققه من إنجازات حضارية، وعلمية، وتقنية هذه الفوبيا أنتجت نوعا من الضبابية حول نوع وطبيعة المشروع الإسلامي، ومرتكزاته وخاصة أن هذا المشروع لازال حتى اليوم تغذيه إيديولوجيات متنوعة وعديدة.

يؤكد أبو زيد أن هناك نصا دينيا ممثلا في القرآن الكريم وهو الوحي المنزل، والذي له مجالاته الخاصة، وأن هناك نصوص عقلية تعود لفاعلية العقل، ولها مجالاتها الخاصة؛ إلا أن الخطاب الديني المعاصر قد وحد بين الفهم العقلي والنص القرآني إلى درجة الحديث باسم الله وفي هذا الادعاء الخطير لا يدرك الخطاب الديني المعاصر أنه يدخل منطقة شائكة هي منطقة "الحديث باسم الله" (حنفي، ح، 1980، 11). إن علاقة الدين بالتراث أحد أبرز إشكاليات النهضة في الخطابات الفكرية، والدينية الإسلامية خاصة المعاصرة إذ يعني مفهوم الدين في القرآن الكريم الشريعة، وقبل الإسلام كان مفهوم الدين يشير إلى طريقة الحياة وطريقة الحياة هي التي أراد القرآن الكريم تغييرها، وتهذيبها فأصبح الإسلام هو قاعدة النجاح . يقول تعالى: "وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: 85)...(أبو زيد، ن 1995، 30). وفي هذا من جهة عدم قبول لغير الإسلام ومن جهة أخرى اعتباره معيارا للنجاح والنجاة في الآخرة.

إن الدين باعتباره تشريعا، وطريقة يتبعها البشر المتدينين في حياتهم؛ لهذا أكد النص الديني القرآني في كثير من آياته أن هذا الدين هو بمثابة تشريع للحياة في ظل ظروف معينة وهذه الظروف مرتبطة بتلك الأحوال التي عرفها ذلك الزمان، والمكان وهي ظروف كانت بمثابة أسباب مباشرة أو غير مباشرة لنزول الوحي القرآني هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان نزول القرآن بمثابة إعلان عن إلغاء، ونبذ الديانات الوضعية، والوثنية التي أسسها البشر من وحي خيالهم ويعد هذا في حد ذاته بمثابة إلغاء لتراث، وتاريخ، ومعتقدات تلك الشعوب؛ يقول نصر حامد أبو زيد: "وهذا أمر طبيعي بالنسبة لنص يستوعب النصوص السابقة عليه فينفيها مؤكدا حضوره هو بوصفه نصا شاملا لكن هذا النفي لا يصل إلى درجة نفي صفة "الدين" على تلك النصوص. اذ يشار إليها دائما بوصفها أديانا، وإن كانت غير مرتضاة. وبهذا يعتبر الدين طريقة الناس في حياتهم، وفي هذا يؤكد القرآن الكريم أن شريعة الإسلام هي الطريقة الأنسب، والأصح، والتي يعيشها هؤلاء الناس، ولعل هذا فيه نفي لتراث وماضي الشعوب. أما عن مفهوم التراث؛ فإنه يشير في التداول القرآني إلى سنن الذين خلوا من قبل وهو كل ما يندرج فيه من مفاهيم، وقيم، ومعتقدات، وتقاليد، وأعراف، ومحددات للسلوك. . . الخ (أبوزيد، ن، 2014، 15). وعلى هذا فالتراث هو كل ما كان متداولا عند

أقوام سابقة، وقد جاء الدين الإسلامي لأجل الغائها ونفيها وتصحيحها، وهذا ما تشير إليه عديد النصوص القرآنية كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون:6). (أبوزيد، ن، 2014، 16).

بعد الحديث عن مفهوم كل من الدين، والتراث نستنج أن التراث يشير إلى طريقة الحياة في الماضي، ويشير الدين إلى طريقة الحياة في الحاضر. إلا أن هذه التفرقة بينهما حسب نصر حامد أبو زيد لم تدم طويلا فقد أسس القرآن الكريم لعلاقة جديدة توحد بينهما أي بين الدين، والتراث ليصبح القرآن دينا وتراثا في الوقت نفسه. (سورة الكافرون الآية، 6.) ليتحول هذا التوحيد إلى إضفاء القداسة على ذلك التراث بما فيه من اجتهادات بشرية فقهية، وتحولت النصوص الثانوية إلى نصوص أولية مركزية وتم اختزال التراث في الدين الإسلامي، وتحولت مهمة العقل من الإبداع إلى مجرد التكرار، والشرح، والترديد مما أدى إلى ركود وجمود الواقع العربي الإسلامي وتراجعه.

إن دعوة ناصر حامد أبو زيد إلى إعادة قراءة التراث الإسلامي خصوصا النص القرآني لم تتوقف عند المستوى النظري، بل انتقل بها إلى المستوى العملي، وعمل على طرح عديد المسائل، وإعادة تأويلها خاصة تلك المرتبطة بالواقع الإسلامي المعاصر، ومنها القضايا الاجتماعية، والأسرية، ومن بين هذه القضايا قضية توريث المرأة هذه المسألة التي لا بد عند دراستها، وفهمها فهما دقيقا، وتسليما باعتماد مقارنة تاريخية بين حقوق المرأة قبل الإسلام، وما بعده وكذلك الوقوف عند المنطقة المشتركة أي نقطة الالتقاء بين اللحظة القديمة، واللحظة الجديدة . وعلى هذا يؤكد نصر حامد أبو زيد أن النصوص القرآنية المرتبطة بمسألة الميراث، والتي تمنح للمرأة من الميراث نصف ما يمنح للرجل هي آيات تحمل مغزى، وهو تحقيق العدالة والمساواة بينهما وهذا قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾. (النساء: 11)

ولكن لا يبقى هذا النص القرآني جامدا، ويطرح حامد أبو زيد فكرة المغزى أو المسكوت عنه في هذا النص والمسكوت عنه في الخطاب يمثل أحدى آليات النص في التشكيل بما هو جزء من بنيته الدلالية وقد يكون المسكوت عنه مدلولا عليه في الخطاب بطريقة ضمنية وقد يكون مدلولا عليه بالسياق الخارجي (أبوزيد، ن، 2014، 20). فالمرأة قبل الإسلام كانت وضعيتها سيئة فقد كانت تعامل على أنها كائن فاقد للأهلية لا تستمد قيمتها إلا من الرجل سواء أكان أبا أو أخا أو زوجا وبذلك كان ليس لها الحق في الميراث، والسبب كان اقتصاديا على وجه الخصوص ومع مجيء الإسلام أعطي الحق للمرأة في الميراث، وهو نصف ما يملكه الرجل، وهذا الحق الممنوح للمرأة يصبح ذا مغزى، ومن خلاله تم تجاوز الوضع المزري للمرأة الذي كانت تعيشه من قبل فالمغزى هنا قد يتحدد بمقياس طبيعة الحركة التي أحدثها النص، وكان الهدف من وراء هذا تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة (سورة النساء، الآية، 11). و هذا التغيير يدل على أن الأحكام الشرعية

متغيرة، ونسبية، وليست ثابتة مطلقة بل أن هذه الأحكام مرتبطة بمختلف الشروط التاريخية، والاجتماعية مما يجعل أساسها الواقع، وليس النص فجعل الميراث للبنت نصف ما للولد لا يعد حكما مطلقا، وثابتا ونهائيا بل حكم مرتبط بظروفه، وبيئته، وواقعه، وبناء على هذا فإنه من المنطقي وإن أردنا أن يكون الحكم معاصرا، وغير مناقض للواقع البشري العالمي، ومختلف المواثيق، والقوانين الدولية فإنه ينبغي مساواة المرأة بالرجل في الميراث . إلا أن هذا التصور آثار الكثير من الانتقادات خاصة من بعض دعاة الخطاب الديني الداعين إلى ضرورة التمسك بحرفية النص، والمعنى الذي يحمله رافضين فكرة المغزى من هذا النص مما يجعل النص جامدا ثابتا في دلالته مما ينجم عنه حسب ناصر حامد أبو زيد إهدارا للمدلول المسكوت عنه (أبوهادي، إ، 379).

لهذا يقر ناصر حامد أبو زيد أن الاجتهاد يقتضي مسألة هامة وهي أن النص يحمل ثنائية، وهي المغزى الثابت، والمغزى المتغير، وعندئذ فالنص مرتبط بدلالتين دلالة ظاهرة، وهي الخطاب أو كلام الله، وهو المنطوق، ودلالة أخرى، وهو المسكوت عنه أو مغزاه .

إن دعوة أبو زيد في خطابه الحداثي حول مسألة المواريث هي تأكيد منه على إعطاء حقوق متساوية بين الرجل والمرأة ولتبرير هذا الرأي يستند إلى ما عرفه عصرنا المعاصر من تطور للحريات، وحرية المرأة خصوصا؛ لهذا ينبغي تطوير المغزى في النص تبعا لتطور هذا الواقع(مفتاح، ج، 225). و الحال كذلك أن لا تكون المعاني الواردة في النصوص عن المرأة بما في ذلك توريثها نصف نصيب الذكر ذات مغزى يتحدد بقياس طبيعة الحركة التي أحدثها النص، وبتحديد اتجاهها؛ إنها حركة تتجاوز الوضع المتردي للمرأة، وتسير في اتجاه المساواة المضمرة، والمدلول عليها في الوقت نفسه. (أبو زيد، ن، 1995، 224.)

و من خلال هذا يؤكد نصر حامد أبو زيد أنه ينبغي تجاوز ثبات النصوص التراثية عامة و، الدينية خاصة، وجعلها حية قابلة للتأويل والتجديد، وقراءتها قراءة عصرية متغيرة و، متجددة.

إنّ القضية الرئيسة بالنسبة إلى نصر حامد لا تتمثل في كيف نجدّد التراث؟ بقدر ما تتجلّى في إعادة تفسير التراث طبقا لحاجات العصر، (أبوزيد، ن، 2007، 46 -61). ولتحقيق هذه الغاية يتبنّى آليات تحليل الخطاب، فيتعامل مع النصوص الدينية باعتبارها نصوصا منتجة للمعنى الكلي.

وفي هذا السياق شدّد على ضرورة الوعي بأنّ جميع النصوص بما في ذلك النصوص المقدّسة؛ هي نصوص لغوية موصولة بالسياقات الاجتماعية، والثقافية التي تشكّلت فيها، بيد أنّ ذلك لا يعني بالضرورة أنّ إشكاليات القراءة تتمثل في اكتشاف الدلالات في سياقها التاريخي الثقافي الفكري، بل تتعدّى ذلك إلى محاولة الوصول إلى المغزى المعاصر للنص التراثي؛ فكل قراءة لا تبدأ من فراغ بل هي

قراءة تبدأ من طرح أسئلة تبحث لها عن إجابات؛ فطبيعة الأسئلة تحدّد للقراءات آلياتها. (أبوزيد، ن، 2000، 264).

ومن هذا المنطلق اعتنى المشروع النقدي لنصر حامد بطرق قراءة النصوص الدينية بتفكيك بناها وتبيّن مقوّماتها. وذلك بالاستناد إلى المكتسبات المعرفية المعاصرة المُستمَدّة من علوم عديدة منها اللسانيات والسيمولوجيا وتحليل الخطاب. . . على أنّ أهم مقاربة عوّل عليها في قراءة الموروث الديني هي المقاربة التأويلية التي تُعدّ المقوّم الرئيس في مشروعه النقدي الساعي إلى تجاوز النظرة التقليدية للتراث؛ من خلال إعادة النظر في المسلمات التي حوّلها الضمير الديني إلى حقائق متعالية عن التاريخ.

وقد تنوّعت القراءات النقدية التي تناولت أعمال نصر حامد بالتحليل، وما ميّز تلك القراءات اختلافها في مستوى المسلمات، وطرق النظر، فبحوث نصر حامد لقيت رفضا من المؤسسة الدينية القائمة في مصر، وهو ما أدّى إلى كثرة الدراسات، والكتب التي هاجمت نصر حامد من منظور جدالي تقليدي، وفي المقابل سعت جماعة أخرى من الباحثين إلى الوقوف على خصائص مشروعه وتقييمه اعتمادا على حس نقدي علمي أكاديمي.

وبناء على ذلك فإنّ الدراسات الناقدة لمؤلّفات نصر حامد أبو زيد انطلقت - وما تزال - من مرجعيات فكرية متباعدة، ومن أهم القراءات النقدية التي سعت إلى إنصاف الباحث؛ قراءة كل من "حسن حنفي" في "حوار الأجيال" وقراءة "علي حرب" الذي يُعدّ - في تقديرنا - أكثر النقّاد موضوعية في تقييم مشروع نصر حامد. وقد تطرق علي حرب إلى مشروع نصر حامد في أكثر من موضع ومن زوايا مختلفة، ونخصّ بالذكر الفصل الموسوم بـ "نصر حامد أبو زيد: خطاب يناهض الأصولية ولكنّه يقف على أرضها"(علي إبن أبي طالب، 2005، 187). من كتاب النص والحقيقة (الجزء الأوّل): نقد النص والفصول الثلاثة الأخيرة من كتاب "الاستلاب والارتداد: الإسلام بين روجيه غارودي ونصر حامد أبو زيد". ففي البحث الأوّل عمل علي حرب على تفكيك بنية الخطاب النقدي لنصر حامد. وقد أدّى النظر في هذا الخطاب النقدي إلى اكتشاف تناقضات عديدة تحكم فكر نصر حامد، ومن أهم مظاهر التناقض انطواء خطاب الباحث على تلفيق منهجي تجلّى في "القول من جهة بأنّ الإيمان بالوجود الميتافيزيقي للنص يطمس إمكانية فهمه العلمي، والقول من جهة ثانية بأنّ الإيمان بمصدره الإلهي لا يتعارض مع إمكانية تحليله، وفهمه، وهو في رأي علي حرب اجترار لمواقف القدامى، وفي ذلك دلالة واضحة على أنّ مشروع نصر حامد قليل الجدّة. فالبحث في مفهوم جديد للنص ادعاء معرفي لا وجود له، أمّا على مستوى مرجعيات الخطاب فثمّة استعمال لافت للانتباه للمعجم الماورائي الغيبي، وفي ذلك مفارقة عجيبة، ذلك أنّ نصر حامد ما انفكّ ينادي بتحرير الخطاب الديني من هذه اللغة، وبهذا المعنى كان نصر حامد أبو زيد أصوليا يسعى إلى التستّر عن حقيقة مواقفه، فهو أصولي في بنية التفكير علماني في مستوى المصرّح به. أمّا في كتابه "الاستلاب والارتداد" فقد تتبّع علي حرب

الطرق التي استعملها نصر حامد في تناول إشكاليات النص الديني، وآليات اشتغال الخطاب الديني وأهم مصطلحاته، فانتهى إلى أنّ الباحث **بدلا من الحفر في أسس الخطاب الديني راح يمارس "لاهوت** التنوير". اللاهوت التقدمي العلماني لتحرير الإسلام وأهله من الاستبداد الكهنوتي وإرهاب العقل، وفي هذه القراءة سعى حرب إلى كشف البعد الأيديولوجي المتحكّم في فكر نصر حامد، وهي مفارقة من نوع خاص، ففي أغلب أعماله ما انفكّ يبيّن الخلفيات الأيديولوجية التي سيّرت الخطاب الديني، دون أن يتفطّن إلى أنّ المرجعية الأيديولوجية المتحكّمة في خطابه النقدي جعلته يتخذ مواقف رجعية أدت في أغلب الأحيان إلى التضحية بالنص وإهدار كينونته ويضاف إلى ذلك أنّ النظر في إشكاليات الحرية، ... تمّ التعامل معها من منظور تقليدي لا يختلف في شيء كثير عن منطلقات التيارات الرجعية التي وجّه لها سهام نقده اللاذع. أمّا فيما يتصل بالمفاهيم والمصطلحات التي قام عليها مشروع نصر حامد ابو زيد النقدي فإنّ أغلب دارسي مؤلّفاته قد أشاروا إلى الالتباس الذي ميز أغلب المفاهيم التي اعتمدها، فمفهوم النص الذي يُعدّ المفهوم الرئيس اتخذ عنده دلالات مغايرة للمرجعيات التي انطلق منها تحليل الخطاب وفي المقابل لاحظ "حسن حنفي" جمع نصر حامد بين تصوّرين مختلفين معرفيا (المنزع العقلي/ المنزع الصوفيَ)، وفي هذا الجمع دلالة واضحة - في تقدير حنفي - عن عجز الباحث عن إيجاد الوَحدة العضوية بين المعتزلة وابن عربي بين التراث القديم والتراث الغربي لقد أقام نصر حامد أبو زيد مشروعه النقدي على ثنائيات واضحة، وقد كان واعيا بما يفصل بينها، بيد أنّ إيمانه بأنّ الثقافة الإسلامية على اختلاف نظمها المعرفية ظلّت منظومة متداخلة الأبعاد هو ما شرّع له الاشتغال على مجالات تبدو في الظاهر متباعدة، ولكن المتأمّل في بعض مؤلّفاته يكتشف أنّ اهتمامه ببعض الحقول المعرفية لاسيما التصوّف يعود إلى أسباب شخصية، وفيما يتصل بهذه المسألة نتساءل عن الحدود التي وضعها نصر حامد للتمييز بين الذاتي والموضوعي في التعامل مع خطاب وجداني عطّل العقل وألغاه أو قلّل من شأنه.

إنّ مواقف الباحث من تجربة محيي الدين بن عربي تكشف عن إعجاب واضح بالتجربة الصوفية، تجلّى في تخصيص كتابين ومقال للنظر في تصوف ابن عربي، ونقدّر أنّ مأتى هذا الاهتمام ما كان للتصوف في نفس نصر حامد من منزلة تشكّلت أيام الطفولة في طنطا فقد انطوى الخطاب النقدي عنده على أبعاد ذاتية عاجزة في تقدير بعض النقّاد - عن التحرر من مسلمات الفكر اليساري أثناء قراءة الخطاب الديني فإذا به يقع في أدلجة الخطاب، وهو ما حذّر منه واعتبره سمة مميزة للخطاب الديني المنغلق.

تعددت مجالات نقد مشروع نصر حامد فاتصلت بعضها بمسلمات الباحث، وتعلقت أخرى بالمقاربات التي اعتمدها، والمفاهيم التي وظّفها، وأهداف مشروعه، على أنّ ما يلفت الانتباه في جميع ما كُتب اختلاف الآراء في قيمة هذا المشروع فلئن كان عند البعض مشروعا نقديا جريئا فإنّ البعض

الآخر رأى فيه مشروعا أصوليا لا يضيف شيئا. وأيا يكن الأمر فإنّ ما يُحسب لنصر حامد طرق أبواب مجالات بحثية ظلّت موصدة قبله بمقاربات جديدة قطعت مع السائد مقدّمة لتصور جديد لماهية الفكر الإسلامي والخطاب الديني بعيدا عن النزعة الدوغمائية.

خاتمة: أخيرا يمكن أن نستخلص مما سبق أن دعوة نصر حامد أبوزيد الى فكرة إعادة قراءة التراث الإسلامي كانت دعوة واضحة، وصريحة مؤكدا فيها على اعتماد عديد المناهج العلمية خصوصا التأويلية منها. فالقراءات التقليدية للتراث في نظره قراءات إيديولوجية بعيدة عن الموضوعية العلمية، وهذا ما دفعه إلى مواجهة تلك التأويلات، والتفسيرات البشرية للخطابات الدينية، وتقديم تصور معرفي جديد يعمل على إعادة تأويل تلك الخطابات في سياق تشكلاتها التاريخية، والاجتماعية مما يمكن من وضع النص القرآني في سياقه التاريخي للفاعلية الاجتماعية، والبشرية التي يتوجه إليها. بهذا يؤكد نصر حامد أبوزيد من خلاله نموذجه التأويلي للتراث الإسلامي أنه يسعى إلى نوع من الوعي العلمي لهذا التراث لأبعاده عن مختلف القراءات المغرضة والملونة بألوان مذهبية، أو سياسية، أو إيديولوجية، إلا أن هذا التوجه هو الأخر، قد أدى إلى نوع من التعدد، والاختلاف في القراءة، والفهم الأمر الذي جعل النص الديني مفتوحا أمام تعدد التأويلات من جهة، وآفاق المؤولين من جهة ثانية لنصبح أمام مأزق تأويلي يعقد المشكلة أكثر من أن يحلها .

**

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

1- أبو زيد نصر حامد، 2005، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط 7، الدار البيضاء المغرب/ بيروت لبنان .

2 - حسن حنفي، 1980، التراث والتجديد، د ط، مكتبة تونس الجديدة، تونس .

3 - عادل مصطفى، 2000، فهم النص مدخل إلى الهيرمينوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير، ط 1 رؤية للنشر والتوزيع القاهرة .

4 - علي بن أبي طالب، 2005، نهج البلاغة، تقديم محمّد عبده، مراجعة وتحقيق علي أحمد حمّود، المكتبة العصرية، صيدا لبنان .

5 - علي حرب، 2005، نقد النص، ط4، المركز الثقافي العربي، المغرب .

6 - مجموعة من الأساتذة والباحثين، 2015 أبحاث مؤتمر التأويلية ونصر حامد أبوزيد، ط1، دار العين للنشر، القاهرة، مصر .

7 - مجموعة من الباحثين، 2016، أعلام تجديد الفكر الديني، ج 1، ط 1، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، المغرب .

8 - مفتاح الجيلاني الحداثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة والقرآن الكريم، دار النهضة للنشر، ط 1، د س .

9 - نصر حامد أبوزيد، 1995، نقد الخطاب الديني، ط 2، مكتبة مدبولي للنشر، القاهرة، مصر .

10 - نصر حامد أبوزيد، 2005، الخطاب والتأويل، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب .

11 - نصر حامد أبوزيد، 2014، النص والسلطة والحقيقة إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب .

12 - نصر حامد أبو زيد، 2007، نقد الخطاب الديني، المركز الثقافي العربي، ط 3، الدار البيضاء المغرب/ بيروت لبنان .

13 - اليامين بن تومي، 2011، مرجعيات القراءة والتأويل عند نصر حامد أبوزيد، ط1، منشورات الاختلاف، الرباط المغرب .